سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل السابع

مصريون
داخل المذبحة

obeikan.com

obeikan.com

١ - حكايات

تثير حكايات المصريين بالعراق حتى من نجح منهم الكثير من الألم فى النفس حُزنًا على مواطنين حضروا للعراق تحت ضغط الحاجة وطمعا فى بناء بيت وتكوين عائلة عند العودة إلى بلدهم إلا أنَّ حتى من نجح منهم بالعراق لم ينجح فى تحقيق الحلم الثانى وهو تكوين عائلة مصرية وإنما احتمى بعائلة عراقية ربما تكون جدارا يحتمى به إذا ما ضل طريق العودة إلى بلده الأم أو عوضًا عن الفشل فى جمع ثروة كان يحلم أن يعود بها ليبنى بيتا بالطوب الأحمر فى قريته ويصبح من ذوى الجاه .. أما من وقف الحظ العاثر فى طريقه فهم الأغلبية من المصريين اللذين استمروا بالعراق بعد الاحتلال الأمريكى واللذين لا توجد إحصائية ولو تقريبية لأعدادهم ومناطق تواجدهم .. حكايات هنا وهناك عن مصريين خاضوا غمار المذبحة .. اكتوى بعضهم بنيرانها وساهم آخرون فى إطفائها .. حقق بعضهم الكثير وصار أحد العناصر الفاعلة بالمجتمع العراقى ونموذجا يحتذى وفشل الآخرون على كافة المستويات وصاروا نماذج منبوذه فى مجتمع عشائرى يعلى قيم الالتزام والأخلاق على النجاح والثراء .. ربما تكون القصص التى أعرضها قصصا فردية لأشخاص محددين إلا أن تلك القصص تتشابه وتتكرر ولكن بأسماء مختلفة وأماكن مختلفة .

٢ - الصعيدى والقاعدة

وجه
ومن أقاصي الجنوب أتى
عاملاً للبناء
كان يصعد «سقالة» ويغني لهذا الفضاء

هكذا وصف أمل دنقل فى قصيدته الرائعة « الجنوبى» وجها صعيديا لا يعرف إلا خشونة العيش أينما كان المكان ووقتما كان الزمان .. تذكرت تلك القصيدة عندما التقيت هذا الصعيدى الذى ذاع صيته فى منطقة يطلق عليها أرض النار فيها تشكلت دولة العراق الإسلامية وانطلقت منها وبعدد من سكانها صولات تنظيم القاعدة وهجماته التى أحرقت الأخضر واليابس .. وفيها كانت بداية النهاية للتنظيم بعد أن دق مناصروه المسمار الأخير فى نعشه بعد أن كشفوا حقيقته وطبيعة أفكاره التدميرية التى طالت الجميع وأصبح لكل بيت فيها نصيب من الموت

قهرا أو قتلا .. جاء عايد محمد عبد العزيز الذى يعرفه الجميع بـ« عيد المصرى » إلى العراق نهاية الثمانينيات مثل ملايين المصريين الذين توافدوا على أرض الخير بحثا عن الرزق الوفير ليعودوا إلى قراهم ويبنوا بيتا بالطوب الأحمر وبه التليفزيون والفيديو والمروحة .. جاء إلى العراق بعد أن ضاقت به «أولاد طوق – شرقية التابعة لمحافظة سوهاج .. ترك قريته «نجع البلابيش» التى ضاقت أرضها الطيبة بأولادها ليزرع أرضا أخرى ربما تمنحه المزيد من الرزق .. لم يكن يملك من حطام الدنيا إلا جلبابا صعيديا يحمله فوق جسده المتلىء .. لأخبرة لديه سوى حرث الأرض وزراعتها .. لا شيء يعينه على الحياة سوى بعض الصحة التى وهبها له الله وزادتها أرض الصعيد الطيبة وحياتها الخشنة .. كان عيد محظوظا كغيره من المصريين الذين حط بهم الرحال فى هذا المكان وبين هؤلاء الناس .. بدرى محمد محمود عثمان وهو من أبنوب بمحافظة أسيوط الذي يعرفه أهل البلد بالطيبة ورقة الطبع رغم أصوله الصعيدية وحياته الخشنة .

كما غادر عيد أرضا طيبة استقر فى أرض طيبة برعاية أهلها الطيبين الذين احتضنوه وزوجوه من بناتهم فالالتزام الأخلاقى فى المجتمعات العشائرية هو الأساس .. صار عيد يتمتع بخصوصية فى منطقة الضلوعية التابعة لمحافظة صلاح الدين التى تبعد حوالى ٩٠ كيلومترا إلى الشمال من بغداد .. صارت كل البيوت بيته يشارك أهلها أفراحهم وأحزانهم .. تعلم عيد فضيلة « الفزعة» وتعنى التطوع لخدمة الجيران فى كل أمور الحياة بدءا من العمل بالزراعة فى أرضهم أو حتى القتال فى قتالهم .. كان الرد بالمثل .. كما أحب عيد أهل الضلوعية أحبوه حتى أنه شارك فيما عرف بالجيش الشعبى الذى كان يضم متطوعين من مختلف الأعمار يقاتلون بالتوازى مع الجيش النظامى العراقى ومهمتهم الأساسية حماية مناطقهم من تسلل أى غريب .

بعد دخول القوات الأمريكية إلى العراق عام ٢٠٠٣ شارك عيد المصرى فى عمليات المقاومة التى قادها رجال مخلصون يدافعون عن حق مقاومة الاحتلال التى كفلتها كل القوانين الدولية بعيدا عن أى أجندات خارجية .. إلا أن عمليات المقاومة الحقيقية سرعان ما تحول مجراها إلى جهات لا تعنيها مقاومة المحتل بقدر ما تعنيها فرض فكر رفضه الجميع وأعنى بذلك تنظيم القاعدة الذى تحول مقاتلوه بعد عام ٢٠٠٥ إلى مقاتلة العراقيين وذبح أهل السنة تحديدا فى المناطق السنية توازيا مع ذبح الشيعة « الرافضة » عندما تطالهم أيدى المسلحين كما يحلو لتنظيم القاعدة ذلك .

سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ وصارت الضلوعية مركزا للموت والقهر

والرعب وجرى على عيد ما جرى على أهل البلدة الطيبين الذين ردت لهم القاعدة جميلهم فى دعم المجاهدين بقتل أهلها والتنكيل بهم .. وكان قتل ثلاثة من أبناء أحد رفاق عيد ويدعى «طلب حسين » نقطة تحول ساهمت فى فورة دم صعيدية تطوع عيد على أثرها ضمن إحدى المجموعات التى شكلها رجال العشائر لمقاتلة تنظيم القاعدة والتى عرفت باسم قوات الصحوة وخاض قتالا ضاريا مع تلك القوات .

يروى عيد أن تنظيم القاعدة حاول فى ربيع عام ٢٠٠٧ تفجير المنزل الذى يقيم فيه مع أسرته حيث كان ملكا لأحد العاملين فى المطار اسمه «رزاق الناصر» وهو فى رأى القاعدة خائنا لأنه يعمل مع الصليبيين .. قام مجموعة من مقاتلى القاعدة بزرع كميات من المتفجرات حول المنزل كما كانت تجرى الأمور غالبا بالنسبة لبيوت من تثبت عليه تهمة العمل مع الأمريكان كمترجم أو مقاول أو حتى عامل نظافة .

أعطى المسلحون عيد مهلة أسبوع لمغادرة المكان وإلا هدموه فوق رأسه مع زوجته وأطفاله .. لم يستسلم وذهب إلى أمير المجموعة وكان سورى الجنسية وطلب منه إلغاء الأمر بتفجير المنزل .. لكن الأمير رفض وقال يمكن مد المهلة شهراً واحداً .. وخلال هذا الشهر كان القتال ضد تنظيم القاعدة قد اشتعل وظهرت قوات الصحوة لتعمل فى العلن كما بدأت قوات الشرطة والجيش فى استعادة بعض مقاليد الأمور وهو ما سيرد ذكره تفصيلا فى موضع آخر من الكتاب .

يقول عيد أنه انضم إلى مجموعة قوات الصحوة التى قادها الشيخ نجم العبد الله الزويع والتى كان يطلق عليها « صحوة أسود أبو نمر» والتى كانت مسئولة عن منطقة الداودية « شرق الضلوعية» والتى خاضت معارك عنيفة مع تنظيم القاعدة تمكنت خلالها من كسر شوكته وكبدته خسائر بشرية ومادية فادحة .. كانت أشد هذه المعارك كما يروى عيد فى منطقة « البوصليبى » التى تقع على طريق العظيم الذى كان يسمى طريق الموت حيث لا أحد يستطيع الوصول إلى هذا الطريق .. استمرت المعركة لمدة ست ساعات انضمت خلالها قوات الشرطة والجيش الرسمية إلى قوات الصحوة.

يقول عيد « كانت تلك المنطقة محورا مفتوحا على ثلاث محافظات هى ديالى وكركوك وسامراء ضمن محافظة صلاح الدين وكان لابد من تأمين تلك المنطقة ولهذا فإن هذه المعركة العنيفة فتحت الباب لعمليات قتالية انتقامية من قبل تنظيم القاعدة أدت إلى مقتل عدد كبير من قوات الصحوة والمواطنين الذين دعموها ضد القاعدة فى هذه المعركة .

شجعت هذه المعركة ومعارك أخرى تلقت فيها القاعدة ضربات موجعة الناس على التحرر من مخاوفهم بعد أن كانوا يتحاشون الصدام مع تنظيم القاعدة وكان من لا يقدر على القتال يقوم بتزويد القوات الأمنية بالمعلومات اللازمة عن اختباء المسلحين الذين جرى إلقاء القبض على عدد كبير منهم وخاصة القياديين .

خاض عيد المصرى هذه المعارك التى خلصت المنطقة من شرور تنظيم القاعدة كأى عراقى وهو الصعيدى الطيب الذى مازال يحتفظ بابتسامة عريضة وصوت جهورى يعرفه الجميع لتظل كل البيوت بيته وكل الناس أهله .. عرف عيد الطريق إلى أرقام الهاتف المحمول فهو الوسيلة الوحيدة الآن للتواصل مع « نجع البلابيش» وأولاد طوق وسوهاج .

عاش عيد كأن الحياة أبد
وكأن الشراب نفد
وكأن البنات الجميلات يمشين فوق الزبد
عاش منتصباً، بينما
ينحني القلب يبحث عما فقد
«فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنه
يشتهي أن يلاقي اثنتين
الحقيقة والأوجه الغائبة» .

٣ - جميل

حَمَلَتْنا الشَّواديفُ من هداةِ النهرِ
ألقتْ بنا في جداولِ أرضِ الغرابة
نتفرَّقُ بينَ حقولِ الأسى.. وحقولِ الصبابة.

من إحدى قرى سيدى سالم الفقيرة بمحافظة كفر الشيخ شمال مصر جاء جميل ضمن مواكب العابرين إلى أرض الغربة فى مرحلة كان العراق أرض الخيرات التى تتيح الحصول على أموال وفيرة من خلال العمل الجاد بعد أن أكلت سنوات الحرب مع إيران خيرة الشباب العراقيين وأصبح المصريون يشكلون الجبهة الداخلية التى تدير عجلة الإنتاج فى كافة القطاعات والميادين حتى تستمر الحياة الطبيعية دون أن تتوقف تحت وطأة حرب الثمان سنوات التى احترق فيها الأخضر واليابس بلا هدف محدد أو نتيجة حتمية أو مكاسب حقيقية .. عمل

جميل مثل معظم المصريين فى مجال المطاعم والمقاهى بدءاً من البصرة جنوبا حتى حطت به الأيام فى العاصمة بغداد .. سنوات الكفاح الطويل التى راح معظم نتاجها المادى أضاعت سنوات العمر الذى زحف إلى نهاية الأربعينيات . كان سوء الحظ يقف له بالمرصاد .. فما أن يستقر فى عمل حتى تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .. وما أن يمسك بيده بعض المال حتى تذهب به الأهوال أدراج الرياح .. مرة يتعرض للسرقة .. وحين يعوض ما ضاع تأتى قرارات الحصار على العراق فتنهار العملة إلى الحضيض وبدلا من أن تعادل آلاف الدنانير التى يدخرها آلاف الدولارات تصبح بلا قيمة ولا تساوى حبر الطباعة التى كتبت به حيث كان الدينار العراقى يساوى أكثر من ثلاثة دولارات إلا أن إجراءات الحصار الدولى عقب غزو الكويت أدى إلى انهيار العملة العراقية ليصبح الدينار فى عام ٢٠٠٢ يساوى ٢٥٠٠ دينار .

هكذا مضت السنون تأكل من أموال جميل وأيام عمره ليتبدل جميل من شاب يافع حالم بغد مشرق إلى كهل أبيض الشعر يمتلىء وجهه بتجاعيد عرجها الزمن وزاد من اتساعها رغم أنه لم يصل إلى الخمسين .. لا بيت ولا أولاد ولا أموال حتى دخلت القوات الأمريكية إلى قلب بغداد وانهارت مؤسسات الدولة العراقية ليبدأ عهد جديد لم يكن أفضل حالا بالنسبة لجميل .

هيأت له الظروف إقامة فى فندق مهجور وسط بغداد التى كانت فنادقها قد أغلقت أبوابها يقضى يومه يبيع الشاى العراقى على ناصية أحد شوارع وسط العاصمة ليكسب ما يقيم أوده فقط ويلقى بجسده المثقل على أرض الفندق المهجور بلا فراش راضيا بالنصيب والقدر المحتوم الذى ضيع كل ما حلم به ومنعه من مجرد التفكير فى العودة خالى الوفاض إلى أهل ربما ينتظرون عودته وهو يحمل كنوز العراق التى حلموا بها معه عندما غادرهم لأول مرة وهو فى ريعان الشباب .

ولأنه مصرى فى وقت كان من يحمل تلك الجنسية متهم بلا مبرر يقع تحت طائلة حقد أعمى من أشخاص أو جهات ربما لا تربطه بهم أى علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالخير أو الشر إنما هو حقد من يظن أن المصريين حصلوا على امتيازات فى عهد صدام حسين الذى باتوا يطلقون عليه لفظ العهد البائد وهو ما جعل جميل ضمن طائلة الأحقاد والشكوك بلا جريمة ارتكبها وبلا مكاسب حصل عليها ربما كانت أنقذته من حالة مذرية يعيشها طوال يوم قاس ينتهى بنوم على أرض خشنة بلا فراش أو غطاء .

يبدو أن مبررا طرأ على أحد الساقطين اللذين اكتوى أقرانهم بنيران احقادهم

وسفالتهم وسقوطهم الأخلاقى ضمن ما كان يعرف بالمخبر السرى الذى يشى بالناس لمجرد عدم القبول أو الاستلطاف ويمكن لوشايته الحقيرة أن تذهب بحياة شخص لا ذنب له إلا أنه حلم ذات مرة أن يعيش كباقى خلق الله حياة مستقرة بعد شقاء سنوات الغربة .

كان هذا ما جرى لجميل الذى طمع أحد الساقطين من المخبرين السريين اللذين تذهب إخبارياتهم إلى عناصر الميليشيات التى كانت تسيطر على المنطقة فى ذلك الوقت .. طمع هذا الساقط فى أرض يلقى جميل عليها بجسده المثقل ويلتحف برداء ملىء بثقوب تحكى سنوات ضياعه وشقائه وانهيار أحلامه فى الاستقرار والحياة العادية .

أخبر هذا الساقط رجال الميليشيات بوجود/مصرى مجرم يمارس تجارة المخدرات ويفسد الشباب الصالحين من اهل المنطقة ضمن مؤامرة تدمير العراق/ التى يقع على العرب عامة والمصريين خاصة العبىء الأكبر لتنفيذها !!! وأقسم يمين القران الشريف على أيدى من لا يؤمنون بما جاء فى كتاب الله وإنما يتخذونه غطاء لأعمالهم الإجرامية من قتل وتنكيل فى من يعتبرونهم أعداء الله والرسول وأهل بيته الكرام .

نهاية العام ٢٠٠٦ جرت عملية اعتقال لجميل من عناصر ميليشيا مسلحة وجرى تعذيبه رغم العذابات التى جربها طوال ٢٠ عاما .. كانت هذه هى النهاية بالنسبة لجميل كجسد غادرته الروح منذ بعيد إلا أنه بقى عالقا بين اليأس والرجاء طمعا فى انقلاب الأمور إلى حالها الطبيعى وتحقيق ما يمكن من بقايا حلم عادى إلا أن تلك النهاية الفاجعة أكملت على ما تبقى من حطام أحلام جميل واستقرت رصاصة أسفل الرأس ألقى بعدها على قارعة الطريق حتى انتهى المطاف بجسده المثخن بطعنات الزمن إلى أرضية إحدى ردهات الطب العدلى / المشرحة/ مثل آلاف غيره لقوا نفس المصير ضمن موجة القتل العبثى التى لم يكن يعلم أحد إلى أين تمتد وتم دفن جميل فى المقابر الجماعية لمجهولى الهوية بمدينة النجف الأشرف وتحول الفتى الذى كان جميلا إلى مجرد رقم وصورة لن تجد من يفتش عن صاحبها .

٤ - العاشق

لاتفرّي من يدي مختبئة

.. خبت النار بجوف المدفأة

أنا..

(لو تدرين)

من كنتِ له طفله

لولا زمان فجأة

كان في كفي ما ضيعته

في وعود الكلمات المرجأة

كان في حبي لم أدر به

.. أو يدري البحر قدر اللؤلؤة؟

إنما عمرك عمر ضائع من شبابي

في الدروب المخطئة

فى العام ١٩٨٤ جاء عاشق إلى بغداد هربا من فشل فى إتمام مشوار الحب بمن يحب .. غادر مصر هربا من شعور بالهزيمة رغم نجاحه فى دراسته وحياته وعلاقاته العادية .. إلا أنه فشل فى أهم علاقة .. كان قراره الانتقام بمزيد من النجاح فى مكان غير المكان ومع ناس غير الناس وفى وطن غير الوطن .. شباب مصرى يتمتع بقدر من الوسامة وقدر من المهارة فى كل شيىء .. وجوده بالعراق قصة نجاح رغم ما شابها من تحديات وتضال مع الواقع المرير الذى كان حلوا فى سنواته الأولى إلا أن رحلة النجاح كادت أن تنتهى بكارثة لولا إرادة الله التى غيرت المصير من جثة مجهولة الهوية إلى خسارة جزء كبير من ثروة مادية ضخمة جمعها على مدى ٢٠ عاما مع تكرار المشهد الذى يقوم فيه بدور الضحية المختطف بينما يتفاوض ذووه على مبلغ الفدية التى تطلبها عصابات عاثت فى أرض العراق فسادا مرتدية رداء الدين تارة ورداء السياسة والأمن تارة ورداء العصابات المافياوية تارة أخرى إلا أن الضحية واحدة فى كل الحالات / مواطن مصرى أو عراقى / لا ذنب له سوى تمسكه بالرزق والحياة فى بلاد الخير أرض السواد .

عمل سعيد الذى فضل أن أذكر اسمه الأول فقط فى مجال الفندقة رغم أنه حاصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة المنصورة حيث أراد أن يكسب رزقه ويبنى مستقبله بعيداً عن فشل حكاية العشق التى تكتظ بالذكريات الأليمة والتى سئمها وسئم الحياة بسببها .. وصل إلى بغداد بحثا عن فرصة عمل حقيقية يمكن من خلالها أن يعود منتصراً بشكل حقيقى بعيدا عن كل مقومات الهزيمة التى تحيط بخريجى الجامعات المصريين .. كان العراق فى ذلك الوقت بوابة مفتوحة لمن يريد .. يسعى إليها كل من يريد أن يبنى بيتا ويؤسس حياة كريمة

دون الوقوع تحت ضغط عقود العمل المقيدة بالكفيل والذل فى بلدان أخرى .. كان لسعيد ما أراد وتمكن بعد رحلة كفاح استمرت حوالى عشر سنوات من امتلاك مطعم كبير للمشويات فى قلب العاصمة بغداد كان قبلة لكل ذى ذوق وكل ذى مركز اجتماعى مرموق .. أصبح هذا المطعم الذى تغلفه شخصية صاحبه الرقيقة عالية الذوق مكانا مفضلا لمن يريد تنظيم حفل أو دعوة كبيرة من مسئولى الأندية وأصحاب القصور والبيوتات البغدادية الراقية وهو ما منح لصاحبه السعيد / سعيد/ أن يجمع ثروة طائلة بعد جهد وعرق وكفاح طوال الفترة التى سبقت دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد وانهيار نظام صدام حسين فى التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ وهو ما جعل الدائرة تدور على المصريين الذين كانوا يتمتعون بمعاملة خاصة من العراقيين بإذن قائدهم صدام حسين الذى كان يعتبر أى اعتداء على مصرى اعتداء عليه شخصيا وهو ما سمح للمجتهدين من المصريين أن يكونوا الكثير من الثروات وعاد منهم الآلاف إلى وطنهم منتصرين بينما استمر آخرون سواء لكسب المزيد من الثروات أو الوقوع تحت وطأة المزيد من الفشل .

أصبح استهداف المصريين والعرب وخاصة ذوى المال والمكانة المرموقة أمراً ممنهجا وهو ما جرى على سعيد الذى كان محط أنظار الجميع محبين وكارهين .. جرى اختطافه ثلاث مرات ليس بدافع سياسى أو أمنى وإنما طمعا فى فدية تقدر ببضع آلاف من الدولارات جمعها الشاب المكافح الذى اقترب من نهاية عقده الرابع على مدى سنوات الكفاح فى بلاد الخير .. خسر سعيد الذى يعرفه الجميع بأبو محمد ما يقرب من عشرات الآلاف من الدولارات لينقذ حياته فى كل مرة من أياد لا ترحم لا تعرف سوى قطع الرؤوس أو ثقبها بالرصاص أو مبادلة ذلك بآلاف الدولارات أو كلا الأمرين معا إذا تعرف الضحية على خاطفية وعندها يصبح جثة مجهولة الهوية ويصير الحصول على جثته مجالاً آخر لاستنزاف ذويه المنكوبين .

رغم ما عاناه سعيد فى سنواته الأخيرة التى قضاها بالعراق قبل أن يقرر العودة نهائيا مع أسرته «زوجة عراقية طيبة وثلاثة أبناء » إلا أنه ظل متماسكا يحاول تعويض ما فقده من ثروة كبيرة وذلك من خلال رفاق طيبين لم يبر منهم إلا الخير وعاش معهم / على الحلوة والمرة/ .. كانوا عونا له فى محنته ورجحت كفتهم الطيبة على كفة الأشرار اللذين أذاقوه لوعة الخسارة إلا أنهم ساهموا فى تقليص سنوات الغربة التى كان قد قرر أن يعود منها منتصرا بكفاح شخصى بعيدا عن أى دعم من جهة رسمية مصرية حتى فى محنة اختطافه التى انتهت

بمساعدة الطيبين اللذين عاش معهم وشب أبناؤه الثلاثة فى معيتهم وعلى خير بلدهم .. خسر سعيد حُبه الأول عندما جاء إلى العراق منذ حوالى ٢٦ عاما وخسر جزءا من ثروته عندما قرر أن يعود إلى مصر .. إلا أنه لم يخسر نفسه فى كلتا الحالتين .. حقق الكثير من النجاح واستعاض بأسرة محبه عن حبيبة فشل فى أن تكون نواة لأسرته .. يستعد الآن للعودة إلى وطنه الأم مغادرا وطنه البديل الذى أصبح له فيه عائلة ومحبين وذكريات ونجاحات وقليل من العذابات .

٥ - السجين

من شدة الحر .. من البقّ .. من الألمْ
يا أصدقائي... لم أنمْ
و الحارس المسكين ما زال وراء البابْ
مازال في رتابة ينقـــل القدمْ
مثلي لم ينمْ
كأنه مثلي.. محكوم بلا أسبابْ

تذكرت تلك الكلمات الرائعة للشاعر الفلسطينى سميح القاسم عندما كنت أستمع إلى قصة مجدى الذى جاء من الإسكندرية سعيا وراء الرزق فى عراق الخير منذ تسعينيات القرن الماضى وهى المرحلة التى بدأ نجم العراق يخبو تمهيداً لخروجه من دائرة الدول التى يعمل لها حساب بعد حربين فاشلتين أكثرها قسوة وألما حربه لدخول الكويت ثم الانسحاب المخزى الذى تلاه سلسلة من الخطايا دمرت الدولة ومهدت لسقوط نظام صدام حسين وسقوط البلاد فى هوة المذبحة .

عمل فى مطبعة كبيرة بالعاصمة بغداد وساعده تمكنه وإخلاصه فى العمل من نيل ثقة أصحاب المال ليعتمدوا عليه بشكل كامل تاركين له مفاتيح المال والعمال مع مكافآت مجزية لإتقان العمل وتحقيق الأرباح تدعمها أمانة الشاب المصرى الذى كان نموذجا للمواطن الصالح .

بعد فترة عمل شاق تكللت بمكاسب مالية كبيرة تمكن مجدى رغم قسوة الظروف والأحداث التى ترافقت مع فرض الحصار على العراق وتجويع شعبه المظلوم دائما منتصف التسعينيات من شراء مطبعة صغيرة فحقق الجزء الأول من حلم أى مصرى وهو الوقوف على قدمين ثابتتين لبناء مستقبل إلا أنه فشل فى تحقيق الجزء الثانى من الحلم وهو تكوين أسرة مصرية استعاض عنها بتكوين أسرة عمادها زوجة عراقية ذات أصول كردية وعاش حياة شبه مستقرة ماديا وعائليا حتى

وقعت الواقعة ودخلت القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى إبريل عام ٢٠٠٣ وما تلا ذلك من فوضى عارمة وعمليات سرقة ونهب منظمة لدوائر الدولة وبيوت من فر هاربا تحت وطأة الفاجعة وهو ما أطلق عليه وقتها « الحواسم» نسبة إلى مقولة صدام حسين قبل الحرب الأخيرة أنها ستكون معركة الحسم وكانت بالفعل حاسمة ولكن لصالح الاحتلال وحكام زمن المذبحة من عصابات وميليشيات خربت البلاد والعباد .

فى شهر أغسطس الحارق أى بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد بحوالى أربعة اشهر تقريبا تعرضت منطقة البتاويين التى يقع بها مقر المطبعة التى يمتلكها مجدى مع عدد كبير من المطابع وهى منطقة تقع وسط العاصمة بغداد لمداهمات من جانب القوات الأمريكية اختفى بعدها مجدى وأغلب الظن أنه راح ضحية وشاية من مخبر سرى أو منافس أراد التخلص منه كمنافس أولا وكمصرى ثانيا مثل آلاف المصريين اللذين ضاعت أقدارهم وسط ضجيج حرب الاستعداء على كل عنصر عربى موجود بالعراق فى تلك الفترة والتهمة دائما جاهزة أما الإرهاب وهى التهمة الغالبة وإما الإجرام وتم إغلاق المطبعة ولم يتمكن أحد من رفاقه المصريين من مجرد الوصول إلى مكانها بعد أن أصبحت منطقة البتاويين محرمة إلا على المجرمين والقوادين قبل أن تستولى عليها عناصر الميليشيات التى ترتدى رداء الدين والعقيدة وترتكب باسم الدين أفظع الجرائم وأشدها قسوة على الإطلاق بلا أى وازع من ضمير وذلك بدعوى تطهيرها من الفساد .

اختفى مجدى متنقلا بين المعتقلات والسجون تاركا خلفه زوجته الجميلة وطفلا صغيرا لا يدرك ما الذى جرى أو ماذا سيجرى عليه من سواد فى أيام شديدة الظلمة والقهر على العراقيين ومن يعيشون معهم خاصة المصريين والعرب بشكل عام .. وحط الرحال بالمصرى الحالم بمستقبل واعد فى أحد سجون إقليم كردستان شديدة القسوة وربما كان من حسن حظ زوجته ذات الأصول الكردية وربما بقايا من الحظ هى التى قادتهم إلى مكانه وجعلت هناك وسيلة اتصال بين الزوجين المكلومين المظلومين حيث تمكنت الزوجة الكردية من زيارة زوجها كونها كردية لا لسبب آخر حاملة طفلها الصغير الذى لم ينعم بطفولة بريئة مثل ملايين الأطفال العراقيين الذين أتوا إلى الدنيا ركضا فى خضم المذبحة بدلا من الركض فى الحدائق والتنزه والتمتع بطفولتهم التى لن يعيشوها أبداً .

روى لى أحمد وهو أحد المصريين الذين عاصروا أيام الخير وخاضوا غمار المذبحة نقلا عن زوجة مجدى أنه لا توجد تهمة محددة موجهة إلى زوجها ولا يوجد قرار بسجنه لمدة معروفة وإنما هو اعتقال مفتوح لا تعلم متى ينتهى فى ظروف بالغة

القسوة لا تتوافر فيها أدنى صورة لحقوق الإنسان وفقا لتقرير صدر عن وزارة حقوق الإنسان فى حكومة إقليم كردستان باستمرار حدوث انتهاكات لحقوق النزلاء في سجونها حيث أشار التقرير الذي يصدر عن وزارة حقوق الإنسان إلى سوء تصرف العاملين ومسؤولي السجون مع النزلاء وعدم السماح لذويهم بعدد كاف من الزيارات، وضيق غرف وقاعات السجون، وتدني مستوى الخدمات الصحية مما أدى إلى انتشار الأمراض الجلدية وإصابات بالسل، فضلا عن افتقاد النزلاء للغذاء الجيد والمياه.

وكشف التقرير الذى صدر فى أغسطس عام ٢٠٠٧ عن وجود ٣٦٦٧ سجيناً في محافظات إقليم كردستان العراق الثلاثة، أربيل والسليمانية ودهوك، بينهم ١٣٤٧ محكوما عليه و٢٣٢٠ موقوفا على ذمة قضايا.

كما أشار إلى وجود مئات من المحتجزين دون تهم، تشتبه الحكومة في ارتباطهم بعلاقات مع جماعات «إرهابية» دون توفر أدلة تدينهم، وتعود فترات اعتقالهم إلى سنوات، حيث تصل بعض الحالات إلى خمس سنوات.

وقدر وزير حقوق الإنسان بحكومة كردستان العراق شوان محمد عزيز عدد المحتجزين دون تهم بثلاثمائة شخص .. موضحا في لقاء مع الجزيرة نت تعليقا على التقرير أن «المشكلة التي تواجهها الحكومة في هذا الموضوع هي أن اعتقال هؤلاء قد تم قبل صدور قانون مكافحة الإرهاب عن البرلمان، وهو ما يمنع قانونا توجيه تهم لهم وفق القانون الجديد».

وكان برلمان إقليم كردستان العراق قد أصدر عام ٢٠٠٦ قانون مكافحة الإرهاب، الذي يطلق يد الأجهزة الحكومية المختصة في اعتقال المواطنين وتوجيه تهم بممارسة الإرهاب إليهم في حالات عدة، مما أثار حينها حفيظة نشطاء ومنظمات تعمل بمجال الدفاع عن حقوق الإنسان في شمال العراق.

ويذكر التقرير كمثال على الانتهاكات انتشار الأمراض الجلدية وبعض الإصابات بمرض السل بين نزلاء عدد من السجون، مثل مركز التوقيف والتسفير بمدينة السليمانية، وسجون منطقة كرميان، ومحافظة أربيل.

وكان تقرير أصدرته منظمة «هيومن رايتس ووتش» مطلع يوليو عام ٢٠٠٧ حول وضع السجون في منطقة كردستان العراق، قد رصد وجود انتهاكات أخرى مثل التعذيب الذي تعرض له نزلاء السجون التابعة للأمن في المنطقة بشكل واسع.

وقد دفع ذلك مسؤولة قسم الشرق الأوسط وشمال افريقيا في المنظمة سارة لي، إلى دعوة كبار المسؤولين الأكراد إلى الاعتراف علنا بوجود انتهاكات في

السجون، كجزء من توجه جديد في تعاطيهم مع موضوع حقوق الإنسان.

وحالة مجدى بالطبع تتكرر كثيراً وما جرى له جرى ويجرى لآلاف المصريين بالعراق بعيداً عن أعين الحكومة المصرية وممثليتها التى لا تلقى بالا لمثل هؤلاء البسطاء اللذين ظلموا فى بلدهم الأم وذاقوا الامرين دون التمكن من تأمين فرصة عمل تتيح حياة كريمة دفعتهم دفعا إلى مستنقع تحول إلى مذبحة مشتعلة تحرق كل من يقترب منها أو يضطر إلى الدخول فى أتونها بينما يقف السادة على حافتها يتفرجون دون تحريك أى ساكن أو محاولة انقاذ ما يمكن إنقاذه من حالمين ضائعين طحنتهم رحا المذبحة أما أحياء بلا حياة أو أمل فى العودة أو معذبين فى معتقلات لا حقوق فيها لبشر أو حجر .. بينما ينتهى أمر الكثيرين قتلى فى مقالب القمامة يتم دفنهم فى مقابر جماعية فى النجف أو كربلاء باعتبارهم مجهولى الهوية ويتحولون إلى مجرد أرقام على شواهد بلا قبور .